فريق موقع الآجري للتفريغ

سلسلة تفريغات "الثالثة"

(١٥)

شَرحُ

كِتَـــابِ الكَبَـــائِر وَتَبْيِينِ الْمَحَارِمِ

تَأْلِيف

الْحَافِظِ أَبِي عَبْدِآللهِ مُحَمَّدِ بنِ أَحْمَدَ بنِ عُثْمَانَ بنِ قَايمَازَ الذَّهَبِيِّ

٦٦٣-٧٤٨ هـ

لفضيلة الشيخ

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

الكَبِيرَةُ الْثَّالِثَةُ عَشْرَةَ: الإِمَامُ الغَاشُّ لِرَعِيَّتِهِ، الظَّالِمُ، الجَبَّارُ

النسخة الإلكترونية الأولى

www.ajurry.com

[أشرطة مفرغة]

بسم الله الرحمـٰن الرحيم

[المتن]

الكَبِيرَةُ الثَّالِثَة عَشْرَة

الإمَامُ الغَاشُّ لِرَعِيَّتِه، الظَّالِمُ، الجَبَّارُ

قَالَ اللهُ تَعَالىٰ:﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِـك لَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[الشورى:٤٢].

[الشرح]

ذكر –رحمه الله– هـٰذه الكبيرة: (الإمَامُ الغَاشُّ لِرَعِيَّتِه، الظَّالِمُ، الجَبَّارُ).

أي الظالم للرعية، الجائر في معاملاته وأحكامه و (الجور) هو التعدّي؛ فهـٰذا من الكبائر، والأصل في الحاكم أن ينصح للرعيّة وأن يرفُق بهم، وأن يسعى في مصالحهم، وأن لا يكون غاشّا لهم، أو ظالما، أو خائنا أو جائرا؛ فإذا كان بهذه الصفة، كان مرتكبا لكبيرة عظيمة وحوب كبير. ويزداد إثمه بازدياد المضار والأخطار التي تترتب أو ينالها الرعيّة بسبب ظلمه وجوره؛ فكلما ازداد الظلم والجور زادت العقوبة عليه عند الله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ– وسيأتي في الأدلة التي ساقها المصنف –رحمه الله– ما يُبيّن خطورة هذا الأمر.

والإمام الغاشّ لرعيّته الظالم لهم يتناول هـٰذا الإمامة العظمى والولاية العظمى، وأيضا يتناول الولايات الصغرى؛ «مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ هَذِهِ الْأُمَّةِ شَيْئًا» كما سيأتي، «وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ». فحتى الولايات الصغرى، يعني ولاية الرجل في بيته على أولاده؛ والمدير في إدارته ونحو ذلك. أيضا إذا كانت المعاملة له في هـٰذه الولاية بالغش فهو عرضة للوعيد، وسيأتي في النصوص ما يبين ذلك.

قال: (قَالَ اللهُ تَعَالىٰ:﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِك لَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[الشورى:٤٢].)

يعني هـٰذا الظلم الذي توعّد الله –سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ– فاعله بالعذاب الأليم والبغي هو لمن بيده ولاية أنكل ممن ليس بيده ولاية؛ قد يكون الإنسان يريد أن يبغي؛ لكن ما بيده سلطة فلا يتمكن؛

لكن من بيده السلطة إذا صار فيه صفة البغي والظلم والعدوان يترتّب على ذلك الأخطار العظيمة والأضرار الكبيرة في المجتمع الذي هو والٍ عليه.

[المتن]

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾[المائدة:٧٩].

[الشرح]

قال: (وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾[المائدة:٧٩].)، التناهي عن المنكر مطلوب من كلّ أحد، ويتأكّد في حق الوالي؛ لأنّ الوالي هو الذي بيده السّلطة، سواءً الوالي في الولاية العامّة أو الوالي الذي هو على أهله وولده في بيته، فبيده السّلطة وبيده التغيير، فإذا كان الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- يقول: ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾، فهٰذه الآية يؤخذ منها معنى واضح في خطورة الأمر على الوالي سواء الولاية العامّة، أو غيرها من الولايات إذا لم يكن ناصحا لهم في هٰذا الباب الذي هو باب حماية المجتمع من المنكرات.

[المتن]

وقَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤُوْلٌ عَنْ رَعِيَتِهِ...».

[الشرح]

ذكر المصنّف -رحمه الله- هذا الحديث في المقدّمة حتى لا يقول قائل: هٰذا لا يعنينا، هٰذه الترجمة لا تعنينا وهٰذه الأحاديث لا تعنينا، هذه خاصّة بالوالي ولا تعنينا، وأنا لست الوالي ولست الحاكم، الحاكم هو فلان فلا يعنيني هٰذا الباب، وربّما إذا وصل إليه يفتح الصفحات التي فيها الأحاديث في هٰذا الباب ويقرأ التي بعدها، يقول: "هٰذا ليس فيه شيء يخصّني أو يتعلّق بي"، فبدأ المصنّف بهذا الحديث وذكره في أوائل الكلام على هٰذه الكبيرة حتى يتنبّه كلّ من يقرأه، يقال له: انتبه، لا يقع في نفسك الكلام في هذا المعنى، وتقول: أنا خارج من هٰذا الموضوع، ولست الوالي ولست أنا الحاكم، فإن النّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يقول: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤُوْلٌ عَنْ رَعِيَتِهِ»، ثمّ بيّن ذلك، وقال: «الوالد راعٍ وهو مسؤول عن رعيّته والأمّ راعية ومسؤولة عن بيت زوجها»، فبيّن ذلك -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، فدلّ ذلك على أنّ النصوص الواردة في الباب كما أنها تتناول الولاية العامّة فهي أيضا تتناول الولاية الخاصّة؛ ولاية الرّجل لبيته، ولاية المرأة لشؤون بيت

زوجها، ولاية المدير في إدارته، الأستاذ مع طلاّبه، إلى غير ذلك من الأمور التي فيها ولايات، فمن كان عنده ولاية ولو في جزء يسير فكان غاشّا، كان ظالما، كان جائرا، كان معتديا، فيشمله أو يكون له حقّ من الوعيد.

فبَدْء المصنّف –رحمه الله– في هــٰذا الحديث هذه لفتة مهمّة وتنبيه لمن يقرأ، عليه أن يتنبّه، ولا يقول أنّ هــٰذه الأمور لا تعنينا.

[المتن]

وَقَالَ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ–: «مَنْ غشّنَا فَلَيْسَ مِنَّا».

[الشرح]

(وَقَالَ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ–: «مَنْ غشّنَا فَلَيْسَ مِنَّا».)، وهــٰذا أيضا ما تعرف به الكبيرة على ما سبق بيانه، الكبيرة تعرف بأمور منها قول النّبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: «لَيْسَ مِنَّا» كما في هــٰذا الحديث: «مَنْ غشّنَا فَلَيْسَ مِنَّا»، وكما سيأتي لاحقا: «**ليس منّا من لطم الخدود، وشقّ الجيوب ودعا بدعوى الجاهليّة**»، فهــٰذا ممّا يُرى به أنّ الأمر كبيرة، وقوله: «لَيْسَ مِنَّا» أي أهل الإيمان التّام الواجب، فليس المراد هنا بــ«لَيْسَ مِنَّا» نفي أصل الإيمان على ما تذهب إليه الخوارج، وليس أيضا المراد على ما تقول المرجئة ليس من خيارنا وأماثلنا، فقوله: «لَيْسَ مِنَّا» أي ليس من أهل الإيمان الواجب الذي يكون لصاحبه الوعد والسّلامة من الوعيد، والنّجاة من الوعيد، فليس منّا من كان بهذه الصّفة، قال: «مَنْ غَشّنَا فَلَيْسَ مِنَّا»، وغشّ النّاس يتناول خداعهم، والتّدليس عليهم، والتلبيس، والاحتيال، والمكر بهم، وترويج البضائع الفاسدة أو الكاسدة، أو مخادعتهم، إلى غير ذلك، هــٰذا كلّه من الغشّ الذي قال النّبي –صلّى الله عليه وسلّم– عن فاعله أنّه «لَيْسَ مِنَّا».

[المتن]

وَقَالَ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: «الظُّلْمُ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ القِيَامَةِ».

[الشرح]

(وَقَالَ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: «الظُّلْمُ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ القِيَامَةِ».) أي ظلمات على صاحبه، وهــٰذا فيه خطورة الظّلم، وخطورة عمل الظّالم إذا لقي الله –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ– يوم القيامة بظلمه، سيكون ظلمه ظلمات يوم القيامة.

[المتن]

وَقَالَ –عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ–: «أَيُّمَا رَاعٍ غَشَّ رَعِيَتَهُ فَهُوَ فِي النَّارِ».

[الشرح]

«أَيُّمَا رَاعٍ» يتناول كلّ راع على العموم الذي مرّ معنا «كُلُّكُمْ رَاعٍ»، قال: «أَيُّمَا رَاعٍ» وهنا نتنبه أنّه ليس مراد الحديث الولاية العامّة كما قد يُظنّ أو كما يظنّ بعض النّاس، فإذا نظرت في التّعميم هنا «أَيُّمَا رَاعٍ» ونظرت في لفظ الحديث السّابق «كُلُّكُمْ رَاعٍ» فالأمر واضح، فهذا يشمل كلّ أحد «أَيُّمَا رَاعٍ غَشَّ رَعِيَتَهُ فَهُوَ فِي النَّارِ»، وهـٰذا من الدّلائل على أنّ الغشّ؛ غش الرّعية كبيرة من الكبائر عقوبة فاعله النّار.

[المتن]

وَقَالَ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: «مَنِ اسْتَرْعَاهُ اللهُ رَعِيَةً ثُمَّ لَمْ يُحِطْهَا بِنُصْحِهِ إِلاَّ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الجَنَّةَ». وَفِي لَفْظٍ: «يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَتِهِ إِلاَّ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الجَنَّةَ» مُتفَقٌ عَلَيْهِ.

وَفِي لَفْظٍ: «لَمْ يَجِدْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ».

[الشرح]

ثمّ ذكر هـٰذا الحديث وفيه الوعيد الشّديد للراعي الذي لم يحط رعيّته بنصحه أو عامل رعيّته بالغش لها، فذكر الوعيد الشّديد: «إِلاَّ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الجَنَّةَ»، وفي لفظ: «لَمْ يَجِدْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ»، هـٰذا وعيد شديد ودليل على أنّ هـٰذا من كبائر الذّنوب وعظائمها، وفي هـٰذا الحديث وغيره من أحاديثه استدلّ الشّيخ "ابن العثيمين" –رحمة الله عليه– في بعض فتاويه على خطورة من يجلب لأولاده في البيت أدوات الفساد، من القنوات الهابطة، والمجلاّت الخليعة، والأمور التي تهيّئ للفساد، هـٰذا من الغشّ لولده، هـٰذا من الغشّ لهم، فهو على خطر عظيم، يُخشى عليه من هـٰذا الوعيد الوارد في هـٰذا الحديث؛ لأنّه غش أولاده، وإذا جلب لهم هذه الوسائل التي هي وسائل فساد أفسدهم وجنى عليهم، حتّى وإن قال: لم أُرِد أن يفسدوا، جئت بها لم أرد أن يفسدوا، يكون واقعه كما قيل:

أَلقَاهُ فِـي الـيمِّ مَكتوفًـا وَقَـالَ لَـهُ	إيّـاكَ إيَّـاكَ أن تَبتـلَّ بالمـاء

ما يمكن يضعه أمام وسائل الفساد وفي الوقت نفسه يقول أريد له السّلامة!، وكثير منهم رأى فساد ولده وندم؛ ولكنّه لم ينفعه ندمه؛ لأنّه دخل بيته دخولا واسعا وعريضا في الفساد؛ بل بعض أبناء

المسلمين لم يكن ما طاله من هــٰذه القنوات فساد أخلاقي؛ بل ارتقى الأمر إلى بعضهم إلى فساد ديني وانحراف عقدي، ودخول في شكوك في الإيمان، وأيضا الدّخول في ممارسات شركيّة وكفريّة من السّحر والحظوظ وأشياء روّج لها أهل الباطل وأدرجوها وأدخلوها على أبناء المسلمين من خلال القنوات الفضائيّة، السّحر يروّج له بشكل واسع، والمراصد السحريّة يروّج لها بشكل واسع، وأيضا الدعوات إلى الأديان الباطلة والمذاهب المنحلّة يُروّج لها بشكل واسع، ولم تصبح القضيّة قضيّة شهوات؛ بل دخل على كثير ممّن يشاهدون هذه القنوات، دخل عليهم في عقائدهم شكوك وشبهات وأوهام، وبعضهم فعلا دخل في بعض العقائد الباطلة، فمن الغشّ من الرّاعي الذي هو الأب في بيته أن يجلب لولده وبنيه ما يكون به فساده، والله –عزّ وجل– ائتمنه على ولده وأمره أن يقيه من النّار: ﴿يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُم وأَهلِيكُم نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ والحِجارةُ﴾[التحريم:٦].

[المتن]

وَقَالَ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: «مَا مِنْ أَمِيرِ عَشَرَةٍ إِلاَّ يُؤْتَى بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ مَغْلُولَةً يَدُهُ إِلَى عُنُقِهِ، أَطْلَقَهُ عَدْلُهُ أَوْ أَوْثَقَهُ جَوْرُهُ»[١].

[الشرح]

هــٰذا فيه أنّ الأمير ولو كان على عدد قليل على خطأ، وأنّه «يُؤْتَى بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ مَغْلُولَةً يَدُهُ إِلَى عُنُقِهِ، أَطْلَقَهُ عَدْلُهُ أَوْ أَوْبَقَهُ جَوْرُهُ»، إمّا أن يكون عادلا فيطلقه عدله، ويكون بهذا العمل ناجيا مــن العقوبة، أو يوثقه جوره أي ظلمه وتعدّيه.

[المتن]

وَقَالَ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: «اللَّهُمَ مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ هَذِهِ الأُمَّةِ شَيْئًا فَرَفَقَ بِهَا فَارْفُقْ بِهِ، وَمَنْ شَقَّ عَلَيْهَا فَاشْقُقْ عَلَيْهِ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

[الشرح]

وهذه دعوة من النّبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– لمن وَلِيَ من أمر الأمّة شيء، ومن يَلُون من أمر الأمّة على قسمين:

- قسمٌ: يرفقون بمن وَلُوا عليهم.

[١] في النسخة: «أوْ أَوْبَقَهُ جَوْرُهُ».

- وقسمٌ: يشقون عليهم.

فالنبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– دعا بهذه الدّعوة: «مَنْ وَلِيَ مِنْ أمرِ هَذِهِ الأُمَّةِ شَيْئًا فَرَفَقَ بِهَا فَارْفُقْ بِهِ، وَمَنْ شقَّ عَلَيْهَا فَاشْقُقْ عَلَيْهِ»، فالمحسن الرّفيق جزاؤه الإحسان والرّفق، والمسيء الذي يُلحق بالأمّة المشقّة جزاؤه العقوبة وأن يشقّ الله – تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ– عليه جزاء وفاقا.

[المتن]

وَقَالَ – عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ–: «سَيَكُونُ أُمَرَاءُ فَسَقَةٌ جورَةٌ، فَمَنْ صَدَّقَهُمْ فِي كَذِبِهِمْ وَأعَانَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ فَلَيْسَ مِنِّيْ وَلَسْتُ مِنْهُ، وَلَنْ يَرِدَ عَلَيَّ الحَوْضَ».

[الشرح]

ثمّ أورد هـٰذا الحديث الذي فيه قال النبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– أنّه سيكون أمراء يَلُون من أمر المسلمين شيئا، ووصفهم بأنّهم «فَسَقَةٌ جَورَةٌ»، فسقة في أعمالهم، وجورة في أحكامهم ومعاملاهم للنّاس، قال: «فَمَنْ صَدَّقَهُمْ فِي كَذِبِهِمْ وَأعَانَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ فَلَيْسَ مِنِّيْ وَلَسْتُ مِنْهُ»، «فَلَيْسَ مِنِّيْ وَلَسْتُ مِنْهُ»؛ يعني الذي يصدّق هؤلاء ويكون عونا لهم على الظّلم مؤيّدا لهم على الظّلم مساندا لهم على الظّلم أو مصدّقا لهم في هـٰذا الظّلم فحكمه حكم هؤلاء، فهم أهل غش، ومن صدّقهم وأيّدهم على هذا فهو مثلهم، هناك قال: «مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا»، وهنا قال: من صدّقهم وأعاهم على ظلمهم، قال: «لَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ»، والقول في معنى: «لَيْسَ مِنِّي» هو كما سبق بيانه في حديث «من غشّنا فليس منّا»، «وَلَنْ يَرِدَ عَلَيَّ الحَوْضَ»؛ لأنّه ثبت أنّه يُذاد أقوام عن الحوض ويقال: إنّك لا تدري ماذا أحدثوا بعدك.

[المتن]

وَقَالَ– عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ–: «مَا مِنْ قَوْمٍ يُعْمَلُ فِيهِمْ بِالمَعَاصِي هُمْ أَغشُّ وَأَكْثَرُ مِمَنْ يَعْمَلُهُ، ثُمَّ لَمْ يُغيرُوا إلاَّ عَمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابِهِ».

[الشرح]

ثمّ أورد –رحمه الله– قول النّبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: «مَا مِنْ قَوْمٍ يُعْمَلُ فِيهِمْ بِالمَعَاصِي هُمْ أَغشُّ وَأَكْثَرُ مِمَنْ يَعْمَلُهُ، ثُمَّ لَمْ يُغيرُوا إلاَّ عَمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابِهِ»، و«عِقَاب» نكرة، فتدل على خطورته،

ولم يعيِّن العقاب، فهـٰذا أيضا فيه الدلالة على خطورته وكبره، لم يقل: فعقابهم كذا أو عقابهم ..لم يحدد مما يدل على عظم هـٰذه العقوبة .

و«مَا مِنْ قَوْمٍ يُعْمَلُ فِيْهِمْ بِالمَعَاصِي» المجتمع الذي تُعمل فيه المعاصي –على ضوء الحديث– لا يخلو من حالتين:

١– إما حالة قوة لأهل الاستقامة وأهل الدين.

٢– وحالة ثانية يكون لهم ضعف.

فـ «مَا مِنْ قَوْمٍ يُعْمَلُ فِيْهِمْ بِالمَعَاصِي هُمْ أَغَشُّ وَأَكْفَرُ مِمَنْ يَعْمَلُهُ، ثُمَّ لَمْ يُغَيرُوا إلاَّ عَمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابِهِ» إذا لم يغيروا.

ثم هنا قضية التغيير يُنظر فيها على ضوء الطرائق المشروعة والأعمال المسنونة، ولا يصح أن يأتي آتٍ ويدخل من خلال أمثال هـٰذه العمومات بأعمال منكرة بحجة أنّه يريد أن يغير المنكر، وقد قيل قديما: "ليكن أمرك بالمعروف بالمعروف ولا يكن تغييرك للمنكر بالمنكر" وإنما يغيَّر المنكر بالمعروف، فالتغيير ليس كيفما أراد الإنسان، وإنما يغير بالوسائل المشروعة، وهنا يخطئ كثير ويضل أقوام تأخذه الحمية والغيرة وإرادة تغيير المنكر فيسلك مسالك غير مشروعة. أحيانا تحت مسمّى تغيير المنكر تراق دماء بريئة وتُتلف أموال محترمة ويُتعدى ويحصل جور على المسلمين باسم تغيير المنكر، فهـٰذا لا يُعدُّ تغييرا وإنما هذا إجراما وفعلا منكرا، هو بنفسه من الأمور المنكرة التي جاء الإسلام بتحريمها والنهي عنها.

فإذاً قوله: (لَمْ يُغَيرُوا) التغيير مطلوب، ويكون التغيير بالوسائل المشروعة، والنبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قال: «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان» والتغيير باليد فيما للإنسان فيه عليه ولاية أو له فيه سلطة.

[المتن]

وَرَوَى أَبُو عُبَيْدَةَ بن عَبْدِالله بن مَسْعُودٍ، عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ–صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدِ

المُسيِءِ، وَلَتَأْطُرُنَّهُ عَلَى الحَقِ أَطْرًا، أَوْ لَيَضْرِبَنَّ اللهُ بِقُلُوبِ بَعْضِكُمْ عَلَى بَعْضٍ، ثُمَّ يَلْعَنُكُمْ كَمَا لَعَنَهُمْ -أيْ بَنِي إِسْرَائِيْلَ- عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيْسَى ابنِ مَرْيَمَ».

[الشرح]

ثم أورد المصنف -رحمه الله- هذا الحديث العظيم في التأكيد على هٰذه الشعيرة المباركة، شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويصدّر النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- تأكيده على هٰذه الشعيرة بالقسم بالله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-، قال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوِنَّ عَنِ المُنْكَرِ، وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدِ المُسيِءِ، وَلَتَأْطُرُنَّهُ عَلَى الحَقِ أَطْرًا، أَوْ لَيَضْرِبَنَّ اللهُ بِقُلُوبِ بَعْضِكُمْ عَلَى بَعْضٍ، ثُمَّ يَلْعَنُكُمْ كَمَا لَعَنَهُمْ» أيْ بَنِي إِسْرَائِيْلَ) الذين كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه.

[المتن]

وَعَنْ أغْلَبَ بنِ تَمِيْمٍ، حَدَّثَنَا المُعَلَّى بنِ زِيَادٍ، عَنْ مُعَاوِيَةَ بنِ قُرَّةَ، عَنْ مَعْقِلِ بنِ يَسَارٍ، عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-قَالَ: «صِنْفَانِ مِنْ أُمَّتِي لَنْ تَنَالَهُم شَفَاعَتِي: سُلْطَانٌ ظَلُومٌ غَشُومٌ، وَغَالٍ فِي الدِّيْنِ يَشْهَدُ عَلَيْهِم وَيَتبرأُ مِنْهُم».

(أَغْلَبُ) ضَعِيْفٌ، وَقَدْ رَوَاهُ ابنُ المُبَارَكِ فَقَالَ: حَدَّثَنَا مَنِيعُ، حَدَّثَنِي مُعَاوِيَةُ ابنُ قُرَّةَ بِنَحْوِهِ، وَمَنِيعُ لاَ يَدْرِيْ مَنْ هُوَ؟!.

[الشرح]

ثم أورد -رحمه الله- هـٰذا الحديث، والشيخ الألباني أورده في الصحيحة في (٤٧٠) كما هو في الهامش. قال : «صِنْفَانِ مِنْ أُمَّتِي لَنْ تَنَالَهُم شَفَاعَتِي» وذكر: «سُلْطَانٌ ظَلُومٌ غَشُومٌ، وَغَالٍ فِي الدِّيْنِ»، والسلطان الظلوم الغشوم هـٰذا هو الشاهد هنا لهذه الكبيرة، أن السلطان الظلوم الغشوم في تعامله أو معاملته للرعية مرتكب لكبيرة، ولا تناله شفاعة النبي الكريم - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-. و«وَغَالٍ فِي الدِّيْنِ» كلٌّ من هذين لا تنالهم الشفاعة: السلطان الظلوم الغشوم والغالي في الدين. نلاحظ هنا ملاحظة حقيقة مفيدة جدا من خلال هذا الحديث: أن الغالي في الدين ودخل في باب الغلو أصبح مع الوالي في رتبة واحدة، هو وإياه لا تنالهم الشفاعة، وقد يكون غلوا في الدين تجاوز في باب ما ينبغي أن يكون عليه المسلم في تعامله مع المؤمنين ومع جماعة المسلمين ومع وحدة صف

المسلمين، فكون غلوّه في الدين إذا أراد به تغييرا لحال الأمة فأصبح هو والوالي الظلوم الغشوم، كلٌّ منهما لا تناله الشفاعة، لا تناله شفاعة النبي الكريم – عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ-، «**صِنْفَانِ مِنْ أُمَّتِي لَنْ تَنَالَهُم شَفَاعَتِي**».

والحديث فيه دلالة على أن شفاعة النبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- تُنال بالأعمال الصالحة، قال رجل للنبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: أسألك مرافقتك في الجنة، قال: «**أعني على نفسك بكثرة السجود**» فلابد من الأعمال الصالحة، ولابد أيضا من ترك الأعمال المحرمة، ونبينا – عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ- نهانا عن المحرمات وأمرنا بالفرائض والواجبات، فهذا السبيل لنيل الشفاعة؛ ولهذا جاء في الحديث الذي في البخاري عن أبي هريرة أن النبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ذكر الغلول يومًا وعظّم أمره وقال في خطبة عظيمة: «**لا يأتين أحدكم يوم القيامة وعلى رقبته شاة لها ثغاء، فيقول: يا رسول الله أغثني! فأقول: لا أملك لك شيئا قد أبلغت. لا يأتين أحدكم يوم القيامة وعلى رقبته بعير له غوار، فيقول: يا رسول الله أغثني! فأقول له: لا أملك لك من الله شيئا قد أبلغتك. لا يأتين أحدكم يوم القيامة وعلى رقبته فرس له حمحمة، فيقول: يا رسول الله أغثني! أقول: لا أملك لك من الله شيئا قد أبلغتك. لا يأتين أحدكم يوم القيامة وعلى رقبته رِقاع تخفُق**)) الرقاع هٰذه هي مظالم للناس وحقوق وتعديات يحملها على رقبته يوم القيامة «**يقول: يا رسول الله أغثني! فأقول: لا أملك لك من الله شيئا قد أبلغتك. لا يأتين أحدكم يوم القيامة وعلى رقبته صامت**» العرب يقسمون المال إلى قسمين: صامت وناطق، الصامت مثل الذهب والفضة والناطق مثل البقر والغنم والإبل ونحوها «**لا يأتين أحدكم وعلى رقبته صامت**» يعني أموال من الذهب والفضة أخذها، فيأتي بها يحملها يوم القيامة على رقبته، ولو كانت الملايين يأتي بها على رقبته يحملها «**فيقول: يا رسول الله أغثني! فأقول: قد أبلغتك**».

فهذا يدل على أن الظلم ما تنفع فيه ولا ينال صاحبه الشفاعة «**لا أملك لك من الله شيئا قد أبلغتك**»

قال: «**سُلْطَانٌ ظَلُومٌ غَشُومٌ، وَغَالٍ فِي الدِّيْنِ**».

ثم ذكر من صفة هٰذا الغالي في الدين أنه ماذا؟ قال: «**يَشْهَدُ عَلَيْهِمْ وَيَتبرأُ مِنْهُم**» أي المؤمنين، أي هٰذه صفته وهٰذه نحلته وهٰذه طريقته؛ ولهذا السّلف قالوا –كما في شرح الإبانة لابن بطة

العكبري وغيرها من كتب السلف– قالوا: "الشهادة بدعة والبراءة بدعة" ومرادهم بالشهادة مثل ما جاء هنا في الحديث: الشهادة على أهل الإيمان بالكفر والبراءة من أهل الإيمان، يتبرأ منهم ويشهد عليهم، وتكون مهمته الشهادة والبراءة: أشهد على هـٰذا بأنه كذا وأبرأ من...، لكن عمل ونصح وسعي في الخيرية في الأمة ونفع المسلمين لا يعتني بذلك، وإنما جالس في مكانه أو مع رفقائه ويشهد على هذا ويتبرأ من ذاك، أما إصلاح ونصح ودلالة على الخير هـٰذا كله مجانب له؛ بل إنه لا يزال في هذه الطريقة حتى ينفك عن جماعة المسلمين ويصبح شاذا خارجا على جماعة المسلمين منفصلا عنهم، يشهد عليهم بالكفر ويتبرأ منهم، فينفصل عن الجماعة ويشذ عن الجماعة، ويد الله على الجماعة، والمطلوب من المسلم أن يكون مع جماعة المسلمين مصلحا ناصحا ساعيا لهم بالخير، لا أن ينفك عنهم وتكون مهمته الشهادة عليهم والبراءة منهم، ولهذا قال السلف: "الشهادة بدعة والبراءة بدعة"؛ لأن هذا عُرف في المبتدعة ولاسيما الخوارج ومن هم على شاكلتهم، ليس لهم همّ إلا الشهادة والبراءة، وهـٰذا هو المعنى المراد هنا، قال: «يَشْهَدُ عَلَيْهِمْ وَيَتبرأُ مِنْهُم».

[المتن]

وَقَالَ مُحَمَّدُ بنُ جُحَادَةَ، عَنْ عَطِيَّةَ، عَنْ أَبِي سَعِيْدٍ الخُدْرِيِّ مَرْفُوعًا: «أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ القِيَامَةِ إِمَامٌ جَائِرٌ»

[الشرح]

أورد هـٰذا الحديث وفيه عقوبة الإمام الجائر عند الله –جلّ وعلا–، والحديث في إسناده ضعف على ما هو مبيّن في الهامش.

[المتن]

وَعَنِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ! مُرُوا بِالمَعْرُوفِ وَانْهَوا عَنِ المُنْكَرِ قَبْلَ أَنْ تَدْعُوا اللهَ فَلاَ يَسْتَجِيْبُ لَكُمْ، وَقَبْلَ أَنْ تَسْتَغْفِرُوا اللهَ فَلاَ يَغْفِرَ لَكُمْ، إِنَّ الأَحْبَارَ مِنَ اليَهُودِ وَالرُّهْبَانَ مِنَ النَّصَارَى لَمَّا تَرَكُوا الأَمْرَ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ المُنْكَرِ لَعَنَهُمُ اللهُ عَلَى لِسَانِ أَنْبِيائِهِمْ ثُمَّ عَمَّهُمْ بِالبَلاَءِ».

[الشرح]

أورد هذا الحديث وفيه خطورة ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وما يترتب عليه من الأضرار، وقد سبق أن مرّ معنا، ورد في الباب أحاديث كثيرة جدا، وهذا الحديث أورده الهيثمي في المجمع وقال: "فيه من لم أعرفهم".

[المتن]

وَقَالَ– عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ–: «مَنْ أحْدَثَ فِي أمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ».

[الشرح]

ثم أورد هذا الحديث وهو قاعدة من قواعد الدين (قَالَ– عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ–: «مَنْ أحْدَثَ فِي أمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ».) وأورده هنا في "الإمام الجائر والظالم والغشوم" لأن هذا الأمر بحكم الولاية قد يعمّ المجتمع كله، بخلاف من ليس واليا إذا أحدث حدثا قد يكون حدثا يخص نفسه، أو يخص من حوله ممن يقبلون دعوته، أما الوالي إذا كان الحدث في الدين منه ضرره على المجتمع كله، ولهذا قال أبو هريرة عندما ذكر بيان حال القلب من البدن قال: "القلب مَلِك، فإذا طاب المِلك طاب الجند، وإذا فسد المِلك فسد الجند" فالحدث من الوالي له خبر واسع وعريض جدا على عموم الرعية إلا من رحم الله؛ ولهذا أورد المصنف لهذه النكتة هذا الحديث هنا «مَنْ أحْدَثَ فِي أمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ».

[المتن]

وَقَالَ:« مَنْ أحْدَثَ حَدَثًا أَوْ آوَى مُحْدِثًا فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أجْمَعِينَ، لا يَقْبَلُ اللهُ مِنْهُ صَرْفًا وَلاَ عَدْلاً».

[الشرح]

أي لا يقبل الله منه فريضة ولا نفلا، وهذا فيه خطورة الحدث في الدين من كلّ أحد، وهو من الوالي ، أو من بيده السلطة أشدّ؛ لأن الأضرار التي تترتّب على الحدث من مثله أخطر وأشنع.

[المتن]

وَقَالَ– عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ –:« مَنْ لاَ يَرْحَمُ لاَ يُرْحَمُ».

وَقَالَ:« لاَ يَرْحَمُ اللهُ مَنْ لاَ يَرْحَمُ النَّاسَ».

[الشرح]

(وَقَالَ– عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلاَمُ –:« مَنْ لاَ يَرْحَمُ لاَ يُرْحَمُ»). أيضا أورد هذا الحديث؛ لأن من بيده ولاية وسلطة على الناس، قدرة على الحكم بالسلطة والولاية، قدرة على الظلم، وقدرة على التعدي، فَسَاقَ هــٰذه النصوص تأكيدا على لزوم مراعاة من بيده ولاية للرحمة، ورعاية الرحمة لمن هم تحت سلطته، فأخبر النبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– أن « مَنْ لاَ يَرْحَمُ لاَ يُرْحَمُ»، وأنه «لاَ يَرْحَمُ اللهُ مَنْ لاَ يَرْحَمُ النَّاسَ»، فمن لا يرحم لا يرحمه الله، من لا يرحم الناس لا يرحمه الله؛ بل أورد المصنف هــٰذا؛ لأن من بيده السلطة، بيده القدرة على الظلم، فيتأكد في حقه ملاحظة الرحمة وملاحظة أيضا قدرة الله عليه، وأنه إذا عامل الرّعية بغير الرّحمة فمعنى ذلك أنه جلب لنفسه سخط الله –عزّ وجلّ–.

[المتن]

وَقَالَ– عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلاَمُ –: «مَا مِنْ أمِيرٍ، يَلِي أُمُورَ الْمُسْلِمِيْنَ ثُمَّ لاَ يَجْهَدُ لَهُمْ وَيَنْصَحُ لَهُمْ إلاَّ لَمْ يَدْخُلْ مَعَهُمُ الجَنَّةَ».

[الشرح]

ثم أورد هــٰذا الحديث وفيه عظم مسؤولية الوالي بأن يجهد النصيحة للرعية وتحقيق ما فيه الخــير والسعادة والإيمان والاستقامة والصلاح وحفظ الدين والأسباب التي بها حفظ الدين والدنيا، فــإذا لم يجهد و لم ينصح لم يدخل معهم الجنة.

[المتن]

وَعَنْهُ–صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قَالَ: «مَنْ وَلاَّهُ اللهُ شَيْئًا مِنْ أُمُــورِ الْمُسْــلِمِينَ فَاحْتَجَــبَ دُونَ حَاجَتِهِمْ وَخَلَّتِهِمْ وَفَقْرِهِمْ احْتَجَبَ اللهُ دُونَ حَاجَتِهِ وَخَلَّتِهِ وَفَقْرِهِ يَــومَ القِيَامَــةِ»رَوَاهُ أَبُــو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ.

[الشرح]

وهــٰذا فيه أن الجزاء من جنس العمل، إذا كان وَلِيَ مصالح المسلمين ولكنه احتجب عنــهم، ولا يمكن لهم أن يجدوا طريقا للوصول إلى مصالحهم لاحتجابه عنهم: احتجاب إما بنفسه أو بعدم وضع نوّاب عنه، وهناك ينوبون عنه في النظر في مصالح الرّعية، فمحتجبا عنهم وعن تحقيق مصالحهم و سدّ خلاّتِهم، فهذا على خطر عظيم، على خطر عظيم، والجزاء من جنس العمل، قال – عَلَيْهِ الصَّــلاَةُ وَالسَّلاَمُ–: «احْتَجَبَ اللهُ دُونَ حَاجَتِهِ وَخَلَّتِهِ وَفَقْرِهِ يوم القِيَامَةِ».

[المتن]

وَقَالَ– عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلاَمُ –: «الإِمَامُ العَادِلُ يُظِلُّهُ اللهُ فِي ظِلِّهِ».

[الشرح]

ذكر هـٰذا الحديث في فضل العدل، كما أن الأحاديث التي مرّت في خطورة الجور، فذكر هـٰذا الحديث في فضل العدل، و المصنف– رحمه الله – أخذه في حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، وذكر منهم الإمام العادل.

[المتن]

وقال –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: «الْمُقْسِطُونَ عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِم وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا».

[الشرح]

قوله المقسطون بيّنها في الحديث، أي: «الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا»، هذا هو المقسط، يعني العادل، الذي يحكم بالعدل ويسوسُ رعيته بالعدل، فمن كان بهذه الصفة يظله الله يوم القيامة في ظله يوم لا ظل إلا ظله كما في الحديث السابق، ويكون يوم القيامة على منابر من نور.

[المتن]

وقال–صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: «شِرَارَ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ، وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ! أَفَلاَ نُنَابِذُهُم؟ قَالَ: «لاَ، مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصَّلاَةَ» رَوَاهُمَا مَسْلِمٌ.

[الشرح]

(رواهما مسلم) أي هـٰذا الحديث والذي قبله، الذي هو «الْمُقْسِطُونَ عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ».

وقال –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «شِرَارَ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ، وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ»، «شِرَارَ» هـٰذه صفة لـ«أَئِمَّتِكُمْ» وهم من يكون رعيته يبغضونه وهو يبغضهم ويلعنونه ويلعنهم، يعني فيه التنافر والتباغض وعدم رضا وعدم الوئام بينه وبينهم، والأصل في الراعي والرعية أن يكونوا على قلب واحد، بينهم المحبة وبينهم المودة، ولكنه مُيّزَ عليهم بالسياسة في أمرهم؛

لأن أمر الناس لا يصلحُ إلا بإمام، فإذا كان الإمام بلغ مبلغا في الشر والسوء، وُجِدَ التنافر بينه وبين الرعية.

قال: «**تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ، وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ**»، وهـٰذا إخبار لما يقع، إخبار بالذي يقع عندما يبلغ الإمام هـٰذا المبلغ في الشر، وليس دعوة من النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- للّعن، ليس دعوة للّعن، وتَوَجُّهٌ للّعن، وإنما هـٰذا إخبار بالذي يقع؛ لأنه يحدث بينه وبين الرعية التنافر والتباغض والتعادي والتهارج و التّساب، وليس دعوة للّعن، وإلا المطلوب هو الدعاء، الدعاء بالهداية بالصلاح.

والسُّنة مضت عند عامة أهل السنة بأن يُدعى للوالي ولا يدعى عليه، يُدعى له أي الصلاح والاستقامة والهداية والرشاد.

حتى في زمن الإمام أحمد - رحمه الله- والفضيل، قال: "لو كانت لي دعوة صالحة لجعلتها للإمام"، هـٰذا من كمال الفقه، لأن صلاح الإمام صلاح للرعية، قال: "لو كانت لي دعوة مستجابة " يعني دعوة واحدة مستجابة، لم أجعلها لنفسي، جعلتها للسلطان، هـٰذا قاله الفضيل بن عياض. علّق على هذا عبد الله بن المبارك قال: "لم يقدر على هـٰذا إلا مثله"، يعني هذا، ما يقدر على هـذا إلا من عنده فقه كبير جدًا، أما كلّ أحد، أو ضعيف الفقه فرأسا يتجه إلى خاصة نفسه، لكن الفقيه والذي ينظر لمصالح المسلمين، له أن يخص بدعوة مستجابة يجعلها لمن فيه صلاح المجتمع كلّه.

و قوله : «**لاَ**»، عندما سألوه: (**أَفَلاَ نُنَابِذُهُمْ؟**)، قال: «**لاَ، مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصَّلاَةَ**»، بعض الأحاديث: «**ما لم تروا كفرًا بواحًا**»، إذا جمعنا بين هـٰذا وهـٰذا نعرف أيضا قدر الصلاة ومكانتها في الإسلام.

قال: «**لاَ، مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصَّلاَةَ**»؛ أي ما كانوا في هـٰذه الحال لا ينابذون بالسيف، ولا يخرج عليهم بالسيف، ولا تنزع اليد من الطاعة.

ثم أيضا لو رأى الناس الكفر البواح و لم يُقِمْ الولاة الصلاة، لا يجوز الخروج عليهم إذا كان يترتّب على الخروج مفسدة، أو مفاسد عظيمة بإراقة دماء المسلمين و انتهاك أعراضهم والتعدي على حرماتهم واختلال أمنهم، وذهاب طمأنينتهم، إذا كان يترتب عليه مفاسد؛ ليس المطلوب جلب المفاسد، المطلوب جلب المصالح.

فحتى لو رأى الناس الكفر البواح الذي فيه عندهم من الله برهان، لا يجوز لهم الخروج، إذا كان

الخروج مفسدة ظاهرة ومفسدة راجحة، لا يجوز؛ لأن هـٰذا ضرر على المسلمين، وشرّ ووبال، ولا يترتب عليه مصالح لهم.

[المتن]

وَقَالَ- عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ -: «إِنَّ اللّهَ لَيُمْلي لِلظَّالِمِ، حَتَّى إذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وكَذلكَ أَخْذُ ربِّكَ إذا أَخَذَ الْقُرى وَهِيَ ظالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَليمٌ شَديدٌ﴾[هود:١٠٢] »مُتَّفقٌ عَلَيْهِ.

[الشرح]

ثم أورد -رحمه الله- هـٰذا الحديث في أنّ الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- «يُمْلي لِلظَّالِمِ»، يعني يمهله؛ لكن لا يهمله، لا يتركه، يملي له بإبقائه، ويبقى على ظلمه وقتا؛ لكن لا يتركه، وإذا أخذه أخذه بغتة، و تلا - عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ -: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾.

[المتن]

وَقَالَ- عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ - لِمُعَاذٍ لَمَّا بَعَثَهُ إلَى اليَمَنِ: «إِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ وَاتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ؛ فإِنَّهُ لَيسَ بَيْنَها وبَيْنَ اللهِ حِجابٌ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

[الشرح]

ثم أورد هـٰذا الحديث للتحذير من الظلم من الولاّة، وفيه أنّ النبي - عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ- لما بعث معاذاً إلى اليمن قال له: «وَاتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ» يعني لا تظلم أحدًا، وبيّن أن دعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب، أي أنها دعوة مستجابة لا ترد.

[المتن]

وقال - عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ-: «إِنَّ شَرَّ الرِّعَاءِ الْحُطَمَةُ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

[الشرح]

(وقال - عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ-: «إِنَّ شَرَّ الرِّعَاءِ الْحُطَمَةُ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.) أظن أنها مضبوطة بالفتح وهي بكسر الرّاء.

الحطمة من الرجال هو: العنيف في سَوْقِ الإبلْ، العنيف في سَوْقِ الإبل يقال له: الحطمة، يعني يسوقها بعنف وشدّة، فمن كان عنيفا في سوق الإبل، يسوقها بشدة يقال له: حطمة.

وضُرِبت هـٰذه مثلا، أو جُعِلت مثلا للوالي الظالم الذي يَسُوسُ رعيته بالظّلمِ والجَوْر والتعدي فهو يُقال عنه: حطمة.

قال: «**إنَّ شَرَّ الرِّعَاءِ**»؛ يعني الولاة ومن بيدهم الرعاية «**الْحُطَمَةُ**»، يعني الذين يسوقون الناس مساق الشدّة وعدم الرفق والمشقة، بالشدّة والمشقة وعدم الرفق.

وهـٰذا الحديث له قصة، والحديث في صحيح مسلم من حديث عائذ بن عَمْرو وكان من أصحاب رسول الله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، أنه دخل على عبيد الله بن زياد وكان واليًا فقال: أيْ بُنَيَّ. عائد يقول لعبيد الله ، يقول لهذا الوالي أو لهذا الأمير، يقول له: أيْ بُنَيَّ. لاحظ التّلطف في المخاطبة، قال: "أيْ بُنَيَّ ، إنّي سمعتُ رسول الله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– يقول: «**إنَّ شَرَّ الرِّعَاءِ الْحُطَمَةُ**» فإيّاك أن تكون منهم"، وهـٰذه نصيحة جميلة، تكلّم مع الأمير وقال: إيّاك أن تكون من هؤلاء. فقال: اِجلِسْ؛ يعني قال هـٰذا الأمير الذي هو عبيد الله لعائد –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ–، قال له: اِجلِسْ ، فإنّما أنت من نُخَّالة أصحاب محمد – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ–. (النُّخَّالة) الحُثالة، وعادة النخالة تُرمى ولا يُعبأ بها، فقال له: إنما أنت من نُخَّالة أصحاب محمد؛ يعني كأنه يقول له: ومن تكون؟ وماذا تكون؟ وهـٰذا فيه دليل على أنه تضجّر وتململ من هـٰذا الحديث الذي ساقه، والْمَقَام يقتضي أن يقول: جزاك الله خير على هـٰذا الحديث الذي أخبرتني به، ورَجَوْتَ أن لا أكون من أهله.

فقال: اجلس، إنّما أنت من نُخالة أصحاب محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال عائد كلمة جميلة جدّا: وهل كانت لهم نُخالة؟ يعني أصحاب محمد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هل كانت لهم نُخالة؟ إنّما النُقالة كانت النخالة بعدهم وفي غيرهم، أصحاب محمد ليس فيهم النُخالة كلهم عدول، كلهم عدول، وكلهم مشهود لهم بالفضل والخيرية، زكّاهم الله في القرآن وزكّاهم النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في السنّة ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**﴾[آل عمران:١١٠]، «**خير الناس قرني**» وأحاديث هـٰذا الباب كثيرة، قال: ما فيهم نخالة، النخالة بعدهم، وهـٰذا فيها أيضا فائدة في مكانة الصحابة وأيضا في خطورة الوقيعة في الصحابة –رَضِيَ اللهُ عَنْهُم– أو النيل منهم أو من بعضهم، فالصحابة عدول كلهم وليس فيهم نقالة، و النقالة هي إنّما كانت بعدهم.

[المتن]

وقَالَ– عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ–: «ثَلاَثَةٌ لاَ يُكَلِمُهُمُ اللهُ...» فَذَكَرَ مِنْهُمُ «المَلِكُ الكَذَّابُ».

[الشرح]

ثمّ أورد –رحمه الله– هــٰذا الحديث والحديث تكرّر معنا واقتصر هنا على الشاهد فقال: «المَلِكُ الكَذَّابُ»، يعني من الثلاثة الذين لا يكلّمهم الله: الملك الكذاب، سبق أن مرّ بنا هــٰذا الحديث «العائل المستكبر والشيخ الزاني»، الشيخ الزاني ليس فيه ما يهيّجه للزنا، والعائل المستكبر ليس فيه أيضا ما يهيّجه للاستكبار، وإنّما الذي أوقعه الفساد الذي فيه، وهنا «المَلِكُ الكَذَّابُ» عادة الذي يوقعه في الكذب مقامه الضعيف، عادة الذي يدفع للكذب المقام الضعيف حتى يبرر نفسه، هل فعلت كذا؟ يعني الذي فوقه في السلطة يقول له: هل فعلت كذا؟ فيخاف وهو في مقام ضعف فيقول: لا، لم أفعل، فيدفع للكذب، غالبا يدفع للكذب الضعف أو التخلص من مواقف معيّنة ونحو ذلك؛ لكن الملك، الملك ما الذي يدفعه للكذب، هو الذي بيده السلطة، هو الذي بيده السلطة، الضعيف ربما يكذب حتى يتخلص ممن هو أقوى منه أو ممن هو فوقه أو من له سلطة عليه أو ممن له ولاية، فقالوا الكذب هذا الذي يدفع إليه، فإذا كان الملك يكذب أو الوالي أو السلطان يكذب، فليس هناك ما يدفع للكذب؛ لأنه هو الذي بيده السلطة، فيكون الكذب دليل على فساده، دليل على فساده، و لهذا يكون الأمر اشتد في حقه وعرفنا أنّ الكذب كبيرة وعظيمة من عظائم الذنوب؛ لكن أيضا يختلف حاله من حال إلى حال ومن أمر إلى أمر.

[المتن]

قَالَ اللهُ–تَعَالَى–: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[القصص:٨٣].

[الشرح]

وهــٰذا أيضا فيما يتعلق بأمر الولاة و أنّ الدار الآخرة أعدها الله تعالى وجعلها ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أمّا إذا كان من شأن الوالي العلو في الأرض والفساد في الأرض، هــٰذا لاحظ له في الدار الآخرة؛ لأنّ الله تعالى جعلها ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾.

[المتن]

وقال النبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: «إِنَّكُمْ سَتَحْرِصُونَ عَلَى الإِمَارَةِ، وسَتَكُونُ نَدَامَةً يَوْمَ القِيَامَةِ» رَوَاهُ البُخَارِيُّ.

[الشرح]

ثمّ هنا فيما يتعلق بالإمارة و أنّ الإنسان لا ينبغي أن يحرص عليها أو أن يطلبها وأن يبحث عنها وإذا ابتلي بها يصبر و ينصح ويسعى في ما فيه نفع العباد و المسلمين.

قال: «إِنَّكُمْ سَتَحْرِصُونَ عَلَى الإِمَارَةِ، وسَتَكُونُ نَدَامَةً يَوْمَ القِيَامَةِ» الندامة يوم القيامة ليست لكل من ولي؛ بل الإمام العادل يظله الله في ظله يوم لا ظلّ إلّا ظله، والمقسطون على منابر من نور، فليست ندامة لكل أحد، وإنّما هي ندامة على من عمل بالولاية على غير الحق و إنما عمله بالجور والظلم والتعدي، فمن كان كذلك فهي ندامة عليه.

[المتن]

وَقَالَ –عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ–:« إِنَّا وَاللهِ لا نُوَلِّي هَذَا العَمَلَ أحَدًا سَأَلَهُ أَوْ أحَدًا حَرِصَ عَلَيْهِ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

[الشرح]

وفيه أنّ من يحرص عليه لا يكون أهلاً، لا يكون أهلاً ؛ يحرص عليه و يطلبه ويسأله ويطالب به، لا يكون أهلاً للولاية.

الآن في قضية الانتخابات في طلب الولاية تجد الإنسان يعني يضع شعارات واسعة جدا ودعوة به وأنا فلان وأنا الذي سأفعل وأنا الذي سأترك ولا تجدوا مثلي ويمدح نفسه، سآتي بما لم يأت به الأوائل وسترون مني ما..، يقوم بجهود كبيرة، مما يتناسب مع مثل هـٰذا الحديث لأنّ الإنسان لا ينبغي له أن يحرص على هـٰذا، و قد ينظر إلى هذه المسألة بنظرة أخرى من باب ما تعم به البلوى، وقد يكون لبعض الناس اجتهادات يعني في هـٰذا الباب؛ ولكن عموما حرص الإنسان وسعيه وطلبه وعرضه لنفسه هـٰذا محل إشكال.

[المتن]

وقَالَ –عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ –: «يَا كَعْبُ بنَ عُجْرَةَ! أَعَاذَكَ اللهُ مِنْ إِمَارَةِ السُّفَهَاءِ، أُمَرَاءُ يَكُونُونَ مِنْ بَعْدِي لاَ يَهْتَدُونَ بِهَدْيِي، وَلاَ يَسْتَنُّونَ بِسُنَّتِي» صَحَّحَهُ الحَاكِمُ.

[الشرح]

ثمّ ذكر –عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ– هذا الحديث فقال: «يَا كَعْبُ بنُ عُجْرَةَ! أَعَاذَكَ اللهُ مِنْ إِمَارَةِ السُّفَهَاءِ، أُمَرَاءُ يَكُونُونَ مِنْ بَعْدِي لاَ يَهْتَدُونَ بِهَدْيِي، وَلاَ يَسْتَنُّونَ بِسُنَّتِي»، فإذن إمارة السفهاء صفتها أنّ أهلها لا يهتدون بهدي النبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– ولا يستنّون بسنته.

[المتن]

وَقَالَ –عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ –: «ثَلاَثُ دَعَوَاتٍ مُسْتَجَابَاتٍ لاَشَكَّ فِيهِنَّ: دَعْوَةُ المَظْلُومِ، وَدَعْوَةُ المُسَافِرِ، وَدَعْوَةُ الوَالِدِ عَلَى وَلَدِهِ» سَنَدُهُ قَوِيٌّ.

[الشرح]

ثمّ أورد –رحمه الله– هذا الحديث؛ بل ختم به فيما يتعلق بكبيرة الوالي الظالم منبها لخطورة الظلم، وأنّ للمظلوم دعوته مستجابة ولا ترد، أنّ دعوته مستجابة ولا ترد.